عنوان المقال

بين التحليل البلاغي وجماليات الخطاب

إعداد

أ.د. طارق سعد شلبي

أستاذ البلاغة والنقد الأدبي بجامعة عين شمس

الأستاذ بقسم البلاغة والنقد بجامعة أم القرى

مدخـــل

(١)

الاهتمام بالعنوان رصدا ودرسا من المجالات التي عني بها الواقع النقدي المعيش؛ ويمثل هذا الاهتمام نتيجة للإفادة من مفاهيم الخطاب وما صحبها من إفادات عميقة من أدوات التحليل اللغوي في دراسة النص الأدبي.

والمتابع للواقع النقدي المعيش يلمس عناية بتحري الصلات الجامعة بين النص والقارئ انطلاقا من مفاهيم جماليات التلقي، وقد كانت دراسة العنوان بحق مجالا خصبا تتضح فيه مزية الأخذ بهذه المفاهيم في دراسة النصوص؛ لما للعنوان من أهمية في تحديد وجهة تواصل المتلقي مع النص من ناحية ووقوفه على دلالته ومقولته من ناحية أخرى.

ومع الإفادة من أدوات تحليل الخطاب، والانطلاق من مقولات جماليات التلقي ازداد خصوم البلاغة ضيقا بها وإعراضا عنها وقدم بعضهم كتابات نظرية أرادوا فيها أن يبرهنوا فيها على عجز البلاغة وأدواتها عن ملاحقة الدارس الراغب في الأخذ بهذه الأدوات والمقولات .

(٢)

يحاول البحث أن يجيب - بشكل تطبيقي؛ لا يتورط في جدال نظري- عن سؤال بعينه هل تسعفنا أدوات البلاغة في الرصد والدرس وقد شغلنا بتحليل الخطاب ورصد التأثير الجمالي على المتلقي؟

إن كنا نتحدث عن عتبات النص ومداخله وسياقاته الدلالية ومقولته وسماته اللغوية في تراكيبه المكونة وتشكلات صياغته، إن كنا نتحدث عن ذلك ونحوه فهل يتسع المجال دون تحيز للبلاغة ولا افتعال أن نرصد التشبيه والاستعارة وننطلق مما انطلق السلف منه من تحديد سمت الكلام خبرا وإنشاء؟ وأن نعنى بالبديع لا بوصفه حلية وزينة بل لأنه تشكيل ونسيج؟

نحسب أن الحكم للبلاغة أو عليها عبر هذا الطريق أجدى من الدفاع عنها أو الهجوم عليها بالتماس المؤثرات التي تعرضت لها عبر تاريخها أو بالبحث عن فلسفتها في صوغ تعريفاتها وترتيب مباحثها .

(٣)

يتخذ البحث من المقال مادة للدرس والتحليل لكيلا يُتوهم أن الاختيار كان لجنس أقرب في طبيعة تشكله إلى ما عني سلف البلاغيين به، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يمثل المقال فنا أدبيا له قدرته على التواصل



مع قطاعات عريضة ومتنوعة من المتلقين؛ ولا أدل على ذلك من ارتباطه بالصحافة، حتى ليمكننا القول بوجه عام إن متلقيه هم جمهور قراء الصحف، ولذلك فلا يشهد هذا الفن ما شهده الشعر مثلا من انحسار في القراءة وتراجع اهتمام.

وينصب البحث على العنوان في المقال لما له من أهمية في قراءة النص وتأثيرات في تقييم المنجز البلاغي؛ ويتخذ مادة الدرس المقالات التي جمّعها "فيض الخاطر" بأجزائه رصدا ودرسا للعنوان فيها من وجهة بلاغية لا تغفل تحري التأثير الجمالي على المتلقي من ناحية ولا تنحصر في نطاق العنوان وحده بل تتجه صوب النص في مجموعه بقدر ما يتسع المقام من ناحية أخرى.

و علة اختيار مقالات فيض الخاطر مجالا للبحث راجعة إلى كثرة هذه المقالات كما وتنوعها كيفا بما يكسب النتائج المستخلصة من الدرس البلاغي لها دقة وإحكاما.

١ – العُنْوانُ جَدلُ التَّمْهيدِ والاسْتِقْلال.

اختيار العنوان خاصة مادة للرصد والدرس راجع إلى الرغبة في لفت الانتباه إلى جانب من تحليل النص لما يظفر بما يستحقه من اهتمام فقد جرى العرف في الدرس النقدي التطبيقي أن ينصب الدرس على العمل نفسه،



وإن كان ثمة اهتمام بالعنوان فلا يرد مستقلا بل يجرى في ركاب دراسة العمل نفسه من حيث هو، وبعبارة أخرى لم يجر التحليل على نحو كاشف لتميز العنوان من عمله منهجيا على الرغم من كونهما طرفين في ثنائية ينبغي أن يعتد بتمايزهما؛ ويتضح ذلك كأشد ما يكون الاتضاح في التلقي؛ إذ يبدأ التلقي من العنوان مستقلا عن العمل على نحو من الأنحاء، ويظفر العنوان بقدر مستقل من التأمل العميق للوقوف على أبعاد مدلوله من ناحية والمضي على طريق التماس الصلات التي تجمعه بالعمل من ناحية أخرى.

والعنوان هو سلطة النص وواجهته الإعلامية، يكشف عن طبيعته ويسهم في فك غموضه ويعين مجموعه ويكثف معناه فالعنوان هو فاتحة الفاتحة النصية واختصار الاختصار .

والعنوان ليس جنساً خطابياً حراً فهو يظل مرتبطاً بنص، لا ينتج دلالته إلاَّ من خلاله وفي وجوده . والعلاقة بين العنوان والنص هي علاقة الرأس بالجسد، العتبة بالدار، المسند إليه بالمسند، إذ يغرى العنوان بولوج النص ويعين جنسه ويوحي ببعض غاياته، ويصف (بعض) محتواه.

وهو نص مكتوب "فثمة غياب كامل لسياق الموقف بل لا وجود له أساسا في الاتصال الكتابي حيث تنكسر الدائرة الاتصالية لنصبح بإزاء جزئين يقوم كل منهما تقريبا بذاته؛ وهما: المرسل - الرسالة، والرسالة -

المستقبل، وتخلق هذه الدائرة المكسورة الشروط اللازمة لمسافة فضائية وزمانية وثقافية إلخ بين المرسل ومتلقية"(١).

مقولة العمل وكيانه ليسا العنوان وحده، وليس العمل بمعزل عن العنوان، إن المقولة والكيان هما المزيج المتشكل من تلاقي العمل والعنوان؛ والاقتصار على أحد طرفي هذه الثنائية في الدراسة لا يعنى إهمالا للطرف الآخر فحسب بل يعنى إهدارا لما تم الاقتصار على درسه كذلك!

يمثل الوقوف على المراد من العنوان - حسبما يحدده المعجم - نقطة انطلاق للوعي به؛ ذلك أن المتأمل في الدلالات التي يذكرها المعجم للعنوان تبدو وثيقة الصلة بمفهومه الذي نعهده باعتبارنا قراء متلقين تبدأ صلتنا بالنص من عنوانه، وباعتبارنا نقادا دارسين ينطلق طموحنا إلى النفاذ إلى مقولة النص من لدن عنوانه تمهيدا لتأمله ودرسه.

فالعنوان هو أول ما يلوح من النص للقارئ وهو ما يمكن أن يُفهم من ارتباط المدلول اللغوي للعنوان بالظهور والتبدي والاعتراض أمام الناظر؛ "عن الشيء ظهر أمامك و اعتن اعترض وعرض (يقولون:) لا أفعله ما عن في السماء نجم أي عرض من ذلك".

---

(١) انظر: نظرية اللغة الأدبية ٩٤.

ويلوح - عبر تأمل الدلالة اللغوية للعنوان - الاتصال الوثيق بين النص(الذي قد يكون كتابا) من ناحية والعنوان من ناحية أخرى؛ " عننت الكتاب و أعننته لكذا أي عرضته له وصرفته إليه، وعن الكتاب يعنه عنا وعننه كعنونه و عنونته وعلونته بمعنى واحد مشتق من المعنى وسمي عنوانا لأنه يعن الكتاب من ناحيتيه" .

وعنوان الكتاب مشتق فيما ذكروا من المعنى قال ابن سيده "العنوان سمة الكتاب و عنونه عنونة و عنوانا و عناه كلاهما وسمه بالعنوان" .

كما ترتبط كلمة العنوان – حسب ما يدل الوضع اللغوي – بالتعامل النقدي؛ فالعنوان قد يرتبط بالدلالة التي تلوح على نحو غير مباشر متخذة مسار التلميح والإشارة وعدم المباشرة هنا تلتقي مع النظر النقدي للعنوان في الأعمال الأدبية؛ إذ يصدر هذا النظر عن وعي عميق بعدم الاقتناع بالدلالة المباشرة للعنوان وتحرى دلالات أخرى مصاحبة؛ "ويقال للرجل الذي يعرض ولا يصرح قد جعل كذا وكذا عنوانا لحاجته وكلما استدللت بشيء تظهره على غيره فهو عنوان له".

وطبيعة التعامل مع العنوان تأملا ودرسا تلوح على نحو ما من ارتباط العنوان بالتحري والقياس؛ إذ ينصب تحرك الناقد على الصلات بين



العنوان وما يومئ إليه بالنظر إلى ما يعنونه؛ "اعتن ما عند القوم أي أعلم خبرهم وكلما استدللت بشئ تظهره على غيره فهو عنوان"(١).

والطريف أن المفهوم الذي قدمه القدماء للعنوان لم يغفل البعد الجمالي المرتبط به والمتبدي في رصد جماليات التلقي؛ "قد جرت عادة المصنفين بأن

(١) أثبت القلقشندي سبع لغات في العنوان؛ إحداها عنوان بضم العين وواو بعد النون والثانية عنيان بضم العين وياء تحتية بعد النون والثالثة عنيان بكسر العين والرابعة علوان بضم العين ولام بدل النون والخامسة علوان بفتحها والسادسة علوان بكسرها والسابعة عليان بالكسر مع إبدال الواو ياء ويجمع عنوان على عناوين وعلوان على علاوين ويقال عنونت الكتاب عنونة وعلونته علونة وعننته بنونين الأولى منهما مشددة تعنينا وعنيته بنون مشددة بعدها ياء تعنية وعنوته أعنوه عنوا بفتح العين وسكون النون وعنوا بضمهما وتشديد الواو.
واختلف في اشتقاقه فمن قال عنوان جعله مأخوذا من العنوان بمعنى الأثر لأن عنوان الكتاب أثر بيان ممن هو وإلى من هو وزعم بعضهم أن العنوان مأخوذ من قول العرب عنت الأرض تعنو إذا أخرجت النبات وأعناها المطر إذا أظهر نباتها وقيل هو مأخوذ من عن يعن إذا عرض وبدا وقيل علوان مشتق من العلانية لأنه خط ظاهر على الكتاب ومن قال عنيان جعله من عنيت فلانا بكذا إذا قصدته قال في مواد البيان والعنوان كالعلامة وهو دال على مرتبة المكتوب إليه من المكتوب عنه والأصل فيه الإخبار عن اسمهما حتى لا يكون الكتاب مجهولا .
والعنوان عند القلقشندي مرتبط بمشغلته بالكتابة ؛ ففي الرسائل (يكون)الأصل أن يبتدأ باسم المكتوب عنه ثم باسم المكتوب إليه وهو الترتيب الذي تشهد به العقول لأن نفوذ الكتاب من المكتوب عنه إلى المكتوب إليه كنشء الشيء وخروجه من ابتداء إلى نهاية انظر صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي – تحقيق الدكتور يوسف علي طويل – دار الفكر – دمشق ج: ٦ ص: ٣٣٥ – ٢٣٦وراجع لسان العرب – دار صادر – بيروت١٣/ ٢٩٠، ٢٩٤، ٢٩٥– ١٥/ ١٠٦



يذكروا في صدر كل كتاب تراجم لتعرب عنه، سموها الرؤوس، وهي ثمانية... ليتشوق الطبع. منها : العنوان الدال بالإجمال على ما يأتي تفصيله، وهو قد يكون بالتسمية، وقد يكون بألفاظ وعبارات، تسمى براعة الاستهلال [١].

ويتضح الوعي بطبيعة علاقة المتلقي بالعنوان من خلال هذين البيتين :

تأخرت عن قوم ولا غرو أنني   سأسبقهم بالجد والجد معوان
ألست ترى العنوان يكتب آخرا   وأول مقروء من الكتب عنوان [٢]

والمتلقي يمثل الركيزة الجوهرية في درس العنوان وقد قدم الدرس النقدي الحديث تصورات مهمة لطبيعة التلقي، بلورت مفاهيم محددة لدرس اللغة من زاوية تأثيرها الذي تحدثه على المتلقين.

يقول إيزر: "إنّ هناك قطبين للعمل الأدبي يمكن لنا أن ندعوهما القطب الفنّي والقطب الجمالي. فالقطب الفني هو نصّ المؤلف، أما القطب الجمالي فهو إدراك القارئ لهذا النصّ" [٣].

---

(١) أبجد العلوم – دار الكتب العلمية بيروت١/ ١٩٠.

(٢) قرى الضيف: عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس– تحقيق عبد الله بن حمد المنصور– دار الفكر– بيروت ٣٨٠.

(٣) التفاعل بين النص والقارئ :ولفانج إيزر: ترجمة مالك سلمان، مجلة علامات، النادي الأدبي بجدة، مج٧/ ٢٥.



ومن خلال تفاعلهما والحوار أو الجدل بينهما في فعل القراءة يتشكل الأثر الجمالي، فإن "العمل الأدبي ليس نصا تماما، وليس ذاتية القارئ تماما، ولكنه يشملهما مجتمعين أو مندمجين"(١).

"يتوسط العنوان علاقة عمله/ مرسلته بمتلقيه حتى لا يكاد هذا المتلقى يتمكن من الوصول إلى العمل إلا عبر فعاليته الخاصة فى تلقى العنوان الذى يحمل بشكل ما فى الأشكال خصوصية عمله داخل بنيته النصية؛ خصوصيته الدلالية والجنسية على السواء، هذه وتلك يدخل المتلقى بها إلى العمل مزودا بأحد أهم مفاتيح الشفرة الرمزية له، وهذه العلاقة هي التى يجب أن يدور عليها التحليل المنهجى للعنوان باعتباره نصا" (٢).

وثمة زاويتان نرصد عبرهما علاقة العنوان بالمتلقي؛ هما: التأثير الجمالي الذي يحدثه العنوان من ناحية، ودوره في الكشف عن الجوانب المختلفة في النص من ناحية أخرى.

فالعنوان ذو تأثير لافت على المتلقي"كل نص له مفتتحة الذي يتسلط على المتلقي تسلطاً لا يستطيع منه فكاكاً.... فالعنوان يتحول إلى أداة مصاحبة تأخذ بيد القارئ حتى لا يضل في متاهات النص فتنقطع صلته به برغم أنه داخله"(٣).

---

(١) نظرية التلقي: روبرت هولب: ، ترجمة د. عز الدين إسماعيل– النادي الأدبي بجدة، ١٤١٥هـ، ص٢٠٢.

(٢) العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي : الدكتور محمد فكري الجزار – الهيئة العامة للكتاب ٦٨.

(٣) بلاغة السرد: الدكتور محمد عبدالمطلب – الهيئة العامة لقصةر الثقافة ١٧-١٨.



"إن العنوان أيا كان عمله يدل بمظهره اللغوي من الصوت إلى الدلالة على وضعية لغوية شديدة الافتقار فهو من جهة سياق ذاته وهو من جهة ثانية لا يتجاوز حدود الجملة إلا نادرا وغالبا ما يكون كلمة أو شبه جملة وعلى الرغم من هذا الافتقار اللغوي فإنه ينجح في إقامة اتصال نوعي بين المرسل والمستقبل على قاعدة العمل الذي يعنونه"(١).

وطبيعة العلاقة بين الطرفين - العنوان والمتلقي - تحيل العنوان مفتاحا للنص؛ "تأتى المشابهة بين العنوان والمفتاح فى الوظيفة، فكما أن المفتاح يتيح لحامله فتح الباب وولوج البيت كذلك العنوان يتيح للقارئ الدخول إلى عالم النص دخولاً شرعيا؛ فتناسي العنوان أو إهماله يجعل التعامل مع النص عموما تعاملا غير شرعي وعدم الشرعية يتبعه نوع من السلوك المغلوط"(٢).

ويمكن تصور البعد الذي يتخذه العنوان في التلقي وفقا للتداولية التي هي علم يهتم بعلاقة اللغة بمستعمليها، هدفه إرساء مبادئ للحوار، في علاقته الوثيقة مع المقام الذي ينتج فيه الكلام . ومن هذه التحديدات يعنّ لنا أن التداولية تخصص لساني يحدد موضوعه في المجال الاستعمالي، أو الإنجازي لما نتكلم به؛ ويدرس كيفية استعمال المتكلمين للأدلة اللغوية أثناء حواراتهم، وفي صب أحاديثهم، وفي خضم خطاباتهم . كما يعتني هذا

---

(٢) العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي ٢١ .

(٢) بلاغة السرد ١٨-١٩.





التخصص بكيفية تأويل مستعملي اللغة لتلك الخطابات وتلك الأحاديث، كما ويهتم أيضا بمنشئ الكلام، وكذا السياق .

"درجت الدراسات في تحليل الخطاب على أن تنطلق من فضاءات إستراتيجية ناتئة في البنية النصية كالعنوان والمقدمة والخاتمة والمواضع الداخلية السميكة، مستنجدة بمعطيات جزئية في وصف المعطيات الكلية، والتي يسمح إدراكها بالإحاطة بعالم النص في صفته الكلية، ثم تأكيد ترابطه من خلال وصف العلاقات بين الأجزاء وتحديد نوعها في مستويي السطح والعمق، مما يؤكد ضرورة الانتقال بالوصف النحوي من مجال الجملة الضيق إلى مجال أرحب يمثله الخطاب في صورته النصية القادرة على الإفصاح والتأثير والفعل"(١).

والمنطلق الذي يحكم تحرك المتلقين صوب الدلالة اعتمادا على العنوان "قدرة العنوان على أن يثير في المتلقي كما هائلاً من التحفز الاستطلاعي الذي يبغى امتلاك المعرفة التي يقدمها الجواب أو المتن"(٢).

وهذا التحفز الاستطلاعي يتبلور في أبسط صوره في تساؤلات:"ماذا يقصد المؤلف بعنوانه؟ أو ما معنى هذا العنوان؟ أو لماذا اختار المؤلف هذا

(١) سعد مصلوح ، نحو أجرومية للنص الشعري ، دراسة في قصيدة جاهلية فصول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، مجلد ١٦ ، عدد١، ١٩٩٧، ص١٥٣.

(٢) بلاغة السرد ٢٠.



العنوان؟ أو ما صلة هذا العنوان بالنص؟ مثل هذه الأسئلة تظل محلقة في أفق العنوان على نحو شمولي لازم"[1].

وهذه التساؤلات تمثل اولى مراحل النظر المتأمل للنص الذي لا يكتفي معه القارئ بالوقوف على ظاهر ما يهبه النص بل يطمح إلى التفكير في أعماقه وأبعاده.

وإذا كانت مواجهة العنوان للمتلقي تبدأ مبكرة من لدن الشروع في القراءة فإن ثمة صحبة ملازمة تجمع العنوان مع القارئ، وتستمر هذه الصحبة حتى الفراغ من القراءة، لتكون القراءة كلها مسوقة من بعض الوجوه للإجابة على ما يبعثه العنوان من تساؤلات وما يثيره من قضايا "العنوان ليس مؤشرا بسيطا بل هو بنية معقدة غاية التعقيد وتمثل أداة ضغط هائل على المتلقي أو القارئ فتحاصره في نطاق منطوقها تارة ومفهومها تارة أخرى وفى إطار الجمع بين المنطوق والمفهوم تارة ثالثة ويظل هذا الحصار محكما حتى يفرغ عن القراءة وعندها يمكن أن يتحقق للعنوان بعده المرجعي من كونه إشارة ظاهرة إلى مستوى كامن ومهمة القراءة العمل على أن يطابق الظاهر الباطن مطابقة إجمالية دون أن ينفى ذلك إمكانية المطابقة التفصيلية في بعض الإجراءات القرائية الواعية"[2].

---

(١) السابق ٢١.

(٢) السابق ٢٢.



وصدور العنوان عن قصدية المبدع أمر يحيلنا إلى ارتباط هذه القصدية بدورها برؤية المبدع للواقع المحيط به "إن العنوان باعتباره قصدا للمرسل يؤسس أولاً لعلاقة العنوان بخارجه سواء كان هذا الخارج واقعاً اجتماعياً عاماً أو سيكولوجيا وثانياً: لعلاقة العنوان ليس بالعمل فحسب بل بمقاصد المرسل من عمله أيضاً وهي مقاصد تتضمن صورة افتراضية للمستقبل، على ضوئها - كاستجابة مفترضة - يتشكل العنوان لا كلغة ولكن كخطاب"(١).

"إن استراتيجية التسمية لدى أي كاتب تعتمد على رؤاه الفكرية وعلى مرجعيته الأيديولوجية واستيحاءاته النفسية من خلال عمله الذي ينتجه، ويزداد التأثير عند ما يتعلق الأمر بعمل إبداعي"(٢).

وللدرس البلاغي القديم إشارات تتسق مع التواصل مع العنوان انطلاقا من هذه التصورات؛ فالعمل في مجموعه من ناحية وصلته بمتلقيه من ناحية أخرى يمثلان حالا تنبغي مراعاة مقتضاها؛ فعلم المعاني: هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال.

---

(١) السابق ٢١.

(٢) الطريق إلى النّصّ - سُلَيمان حُسَين - من منشورات اتحاد الكتاب العرب - ١٩٩٧ - الكتاب على موقع الاتحاد على شبكة الانترنت.





ويتجاوز الأمر هذا التصور النظري المطلق إلى إجراءات محددة في التواصل مع ظواهر النص رصدا ودرسا؛ قال السكاكي "علم المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره؛ ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره"(١).

والعنوان من المناطق شديدة الخصوصية في النص لأهميتها من زاوية التلقي؛ " ينبغي للمتكلم أن يتأنق في ثلاثة مواضع من كلامه؛ حتى تكون أعذب لفظًا، وأحسن سبكًا، وأصح معنى؛ الأول الابتداء؛ لأنه أول ما يقرع السمع، فإن كان كما ذكرنا أقبل السامع على الكلام فوعى جميعه، وإن كان بخلاف ذلك أعرض عنه ورفضه، وإن كان في غاية الحسن. وأحسنه ما يناسب المقصود، ويسمى براعة الاستهلال"(٢).

وثمة مستويان لدراسة العنوان؛ "الأول: مستوى ينظر فيه إلى العنوان باعتباره بنية مستقلة لها اشتغالها الدلالي الخاص، والثاني: مستوى تتخطى فيه الإنتاجية الدلالية لهذه البنية حدودها متجهة إلى العمل ومشتبكة مع دلائليته دافعة ومحفزة إنتاجيتها الخاصة بها"(٣).

---

(١) الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني – مكتبة الآداب ١٩٩٩ ١\٢٧-٢٨.

(٢) السابق ٤\١٣١.

(٣) العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي ٨.





وعلاقة العنوان بالعمل ذات طبيعة جدلية لافتة؛ فهي تجمع بين الارتباط والاستقلال؛ "فالعنوان صار إلى الاستقلال عما يعنونه استقلالا لا ينفي علاقته به، بقدر ما هو ناف لاختزال هذه العلاقة في وظيفة أحادية الاتجاه من العنوان إلى العمل فيما يشبه الإحالة الأولية من الأول إلى الثاني دونما أدنى تدخل من القارئ فى إنتاج هذه الإحالة...وتبلغ فاعلية العنوان من التعقيد حد أن الحديث عن نصيه عمل ما يجب أن يضع في اعتباره كون العنوان نصا نوعيا له-كالعمل تماما- بنيته وإنتاجيته الدلالية"(١).

ويتمثل هدف الدرس النقدي للنص في التقاط ذلك المزيج الدلالي بين دلالة العنوان ودلالة العمل؛ صدورا عن يقين بعدم جدوى الاقتصار على بعد واحد منهما.وهو ما يلوح في التماس علامة وسيطة " تنبني من مدلول العنوان ودال العمل وهذه العلامة هي هدف التحليل، أكان تحليلاً للعمل من جهة عنوانه أم تحليلاً للعنوان من جهة عمله - وإن أي تحليل لأي من العلامتين - علامة العنوان وعلامة العمل - لا يضع فى اعتباره العلاقة الأخرى هو تحليل قاصر عن إدراك نصية ما يحلله"(٢).

(١) السابق ١٥.

(٢) السابق ٢٠.



٢- الخَبَرُ والإِنْشَاءُ وثُنَائِيَةُ التَّكَلُّمِ والخِطَاب.

المتأمل في بعض عناوين المقالات التي ضمها كتاب فيض الخاطر يجد أن بعضها يعطي للمخاطب انطباعا بعينه؛ وهو أن وراءها تأملا عميقا وتفكيرا طويلا، وأن ثمرة هذا التأمل تمثلت في التوصل إلى نتيجة يطمئن الكاتب إليها ويقتنع بها حتى لتعد من وجهة نظره حقيقة ثابتة ومسلمة بدهية.

وحين نبحث عن منابع هذا الانطباع في العنوان فربما أمكننا أن نعزوه إلى صوغه خبرا.

ولم يتصور الدرس البلاغي القديم الخبر بمعزل عن "المخاطب" والرصد الدقيق لأحواله على اختلافها[1].

ومن أمثلة هذه العناوين: "الراحة في التغيير"، "الإنسان حيوان محارب"، "الإنسان طفل صغير"، وتشترك هذه العناوين الثلاثة في صوغها على قالب الجملة الاسمية الذي خلا من الفعل، وللفعل ارتباط بالزمن، مما يربط الدلالات المعبر عنها به – على نحو مواز – بالتحول والصيرورة.

---

(١) قصد المخبر بخبره: إفادة المخاطب. إما الحكم، أو كونه عالمًا به؛ ويسمى الأول فائدة الخبر، والثاني لازمها، وقد ينزل العالم بهما منزلة الجاهل لعدم جريه على موجب العلم؛ فينبغي أن يقتصر من التركيب على قدر الحاجة،... وكثيرًا ما يخرج الكلام على خلافه، فيجعل غير السائل كالسائل،...وغير المنكر. كالمنكر...والمنكر كغير المنكر انظر التلخيص في علوم ٤١ وما بعدها.

أما في حالة الجملة الاسمية، فالدلالة ثابتة باقية تبدو بمنأى عن التحول والزوال وكأن الكاتب حين يعبر عن معنى ما بقالبها فإنه يكسب هذا المعنى تأكيدا، ويخرجه من إطار المعنى المعروض إلى القاعدة الصحيحة الثابتة.

وإذا رغبنا في الإفادة من طبيعة النظر البلاغي إلى الأسلوب الخبري فإننا سنجد حفاوة بفكرة الغرض؛ حين ينصرف الأسلوب إلى دلالة إضافية يبرزها للمتلقي، وهي دلالة يُوجّه إليها السياق، ويهدي تحديدها إلى الوقوف على البعد الانفعالي المصاحب لتشكل الدلالة، ففكرة الغرض في الأسلوب الخبري تقوم على إبراز وجه في الدلالة مصحوب بانفعال عايشه الأديب وأراد أن ينقله عبر هذا الأسلوب إلى المخاطب.

وقد يكون البعد الانفعالي المصاحب التقدير والإعجاب: "محمد الرسول المصلح"، أو يكون النفور وعدم الارتياح مما يصل إليه المتأمل حين يُعْمل فكره ثم يتبدى له ما يسوء؛ "أدبنا لا يمثلنا"، "الشرق ينقصه الحب" "آفة الشرق التقاليد".

وقد تزداد درجة النفور فتصبح اعتراضا وثورة؛ "ساسة العالم منافقون" ومرد حدة الانفعال هنا ما حققه الكاتب من تلاق بين طرفيْن: الأسلوب الخبري بدلالته الذاتية على البداهة واليقين من ناحية وسمات

الصياغة والتركيب من ناحية أخرى، ففي إيثار الجمع "ساسة" و"منافقون" ما يشي باطراد النفاق لدى الساسة كلهم وفي التعويل على التركيب الإضافي "ساسة العالم" ما يكسب الدلالة المستقاة سعة وشمولا.

وقد ينطوي العنوان على عاطفة الحماسة والاعتزاز كما نجد في عنوان أحد المقالات: "عنوان القوة في الأمة"، وربما رغب الكاتب في أن تستحيل هذه الحماسة إلى حفز لهمة المخاطب وتحريك لنوازع الأمل لديه أن يتحرى مظاهر القوة في أمته وقد كان فيها "عنوانها"

إن طائفة الأغراض(١) التي التمسها البلاغيون ليست وجوها محددة لا ينصرف المعنى إلا لواحد منها، هذا وهم زل فيه منكرو الدرس البلاغي وعائبوه، إن وراء فكرة الأغراض اجتهادا في تلمس قرائن السياق، وحرصا على ربط المعنى بما يكتنفه من عاطفة وانفعال، هذا كله مع حفاوة بمتلق يتجه النص بتمامه إلى خطابه.

---

(١) من هذه الأغراض الدعاء نحو: رب اغفر لي، والالتماس كقولك لمن يساويك رتبةً: افعل، بدون استعلاء ثم الأمر؛ قال السكاكي: حقُّهُ الفور، لأنه الظاهر من الطلب، ولتبادر الفهم عند الأمر بشيء بعد الأمر بخلافه إلى تغيير الأمر الأول دون المنع وإرادة التراخي، وفيه نظرٌ. ومنها النهيُ، وله حرف واحد، وهو لا الجارمةُ في نحو قولك: لا تفعل، وهو كالأمر في الاستعلاء، وقد يستعمل في غير طلب الكف أو الترك للتهديد، كقولك لعبد لا يمثل أمرك: لا تمتثل أمري، انظر التلخيص في علوم البلاغة ، ص ١٧٠.

وهكذا فإن فكرة الأغراض ليست كما تبدو في الظاهر جامدة ومحددة ومحدودة إنها محصلة لنهج في التواصل مع النصوص رصدا ودرسا، وهو نهج مازال قادرا على الأخذ بأيدينا في قراءة مختلف النصوص.

وتبرز في الأساليب الإنشائية ثنائية المتكلم والخطاب، وقد ورد من الأساليب الإنشائية، في صياغة العناوين ثلاثة أنواع: الاستفهام والأمر والنهي، وفي هذه الأنواع الثلاثة سرعان ما يستحضر المتلقي سائلا ومسئولا، وآمرا ومأمورا، وناهيا ومنهيا.

ولعل هذا الاستحضار التلقائي المباشر للطرفيْن هو ما يعلل لنا بروز الانفعال المصاحب لهذه الأساليب، فالمتحدث يظهر بشكل مباشر في سياق خطاب التلقي .

ولهذا فالمجال يتسع لبروز ذاتية الكاتب المتكلم وقد صنع الإنشاء سياقا حميما يجمعه بالمخاطب على نحو يسمح له بالحديث المنساب عن الذات: "ما الذي ألهمني الأدب" ؟ إن السياق الحميم المشار إليه يجعل مما يتعلق بذات الكاتب مشغلة مشتركة له وللمخاطب في آن.

وقد يكون مناط الاهتمام المخاطب، وقد غدت"ابتسامته"غاية العناية للطرفين:"ابتسم للحياة"، أو تكون إرادته في الحياة هي القضية الشاغلة

"اصنع حياتك"أو كانت عزته مسألة تشغل الكاتب بإلحاح كما يومئ إلى ذلك اقتران النهي[1] بالأمر إلحاحا على دلالة بعينها؛ "كن سيدا ولا تكن عبدا".

وقد يلتقي الطرفان معا في إطار واحد جامع مازج لهما؛ "لماذا نعيش؟" إذ يصح إرجاع الذات المتكلمة هنا إلى الكاتب والمخاطب معا وقد استحالا كيانا واحدا متأملا في غايات العيش وأهدافه.

وقد تشي طبيعة الخطاب الذي يحيل إليه الإنشاء بمبلغ طموح الكاتب في اتساع قاعدة المتلقين فلا يكون المخاطب واحدا بل جمعا كثيرا؛ "احرقوا اللوائح" ووراء هذا الطموح إيحاء بانفعال الضيق والثورة من اللوائح الجامدة المعرقلة، وفي صوغ الأمر خطابا للمجموع نزوع إلى تكوين موقف عام من هذه اللوائح وقد اشتدت وطأتها غير منحصرة في فرد بل مضرة للجمهور العريض.

وهذا السياق الحميم الذي أشرنا إليه وقد جمع الكاتب المتحدث والمتلقي المخاطب يحتضن في سماحة حالة من الألفة بين الطرفين على نحو ما نجد في التساؤل: "العصا أم القضا؟" ففي صياغة العنوان درجة ما من الاقتراب من لغة الحياة اليومية، وأوجد إسقاط همزه القضاء نوعا من

---

(١) لا الناهية:معناها النهى أصالة وتحمل عليه مجازات النهى من الالتماس والدعاء والتمهيد والإرشاد والتمنى ... وأكثر دخولها على فعل المخاطب انظر الأساليب الإنشائية في النحو العربي:عبد السلام هارون مكتبة الخانجي١٨٤.



الإيقاع. والمحصلة لذلك كله أن بدا العنوان وكأن فيه روحا من الدعابة والمزاح وفي ذلك من استحضار المخاطب والوعي الدقيق بردود أفعاله تجاه النص ما فيه.

٣-الحَذْفُ جَدلُ الحُضورِ والغِياب.

تقوم فكرة الحذف على إسقاط أحد مكونات التركيب من الصياغة، مع وجود القرائن التي تعين المتلقي على تحديد العنصر المحذوف، وهي قرائن يوجدها التواصل مع السياق الذي يتضمن الحذف.

"والعنوان يكاد يعتمد الغياب الصياغي لبعض مكوناته أى أنه يتعمد حذف بعض دواله فهو يأتى ناقصا صياغيا على الأغلب واستحضار هذا المحذوف أو الغائب يحتاج إلى استحضار بنية العمق ثم ربط هذه البنية بالفضاء النصي المحيط بالعنوان، سواء فى ذلك أكان الغائب يحتل صدارة العنوان أم مؤخرته"(١).

وقد عبر الإمام عبد القاهر في الدلائل عن مزية هذا الحذف في عبارة شعرية دالة على بعده الجمالي الأصيل الذي ينطوي عليه؛ " ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن "(٢).

---

(١) بلاغة السرد ٢٣-٢٤.

(٢) دلائل الإعجاز ١٧٠.



ومن هنا فالحذف لا يعني تغييبا كليا للعنصر المحذوف، فمثل هذا التغييب يعني احتمال أن يكون التركيب غير مفيد، إن الحذف البلاغي هو الذي يوجه فيه المذكور إلى تحديد المحذوف، وربما يستأثر هذا العنصر المحذوف بمساحة أرحب من اهتمام المتلقي بفضل مغايرة التركيب للمألوف المعتاد من قاعدة الصوغ والبناء.

والناظر في الدرس البلاغي للحذف يكاد يوقن أن البلاغيين لم يتصوروا هذه الظاهرة في بعدها الجمالي اللافت إلا عبر ثنائية التكلم والخطاب؛ وذلك في تحديدهم أغراض الحذف(١).

---

(١) أما حذفه فإمَّا لمجرد الاختصار والاحتراز عن العبث بناءً على الظاهر، وإما لذلك مع ضيق المقام، وإما لتخييل أنَّ في تركه تعويلا على شهادة العقل وفي ذكره تعويلا على شهادة اللفظ من حيث الظاهر، وكم بين الشهادتين ! . وإما لاختبار تنبه السامع عند القرينة، أو مقدار تنبيهه، وإما لإيهام أن في تركه تطهيرًا له عن لسانك أو تطهيرًا للسانك عنه، وإما ليكون لك سبيل إلى الإنكار إن مست إليه حاجة، وإما لأن الخبر لا يصلح إلا له حقيقة أو ادعاء، وإما لاعتبار آخر مناسب لا يهتدي إلى مثله إلا العقل السليم والطبع المستقيم.

وأما ذكره؛فإما لأنه الأصل ولا مقتضى للحذف، وإما للاحتياط لضعف التعويل على القرينة، وإما للتنبيه على غباوة السامع، وإما لزيادة الإيضاح والتقرير، وإما لإظهار تعظيمه أو إهانته كما في بعض الأسامي المحمودة أو المذمومة، وإما للتبرك بذكره، وإما لاستلذاذه، وإما لبسط الكلام حيث الإصغاء مطلوب. راجع الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ١\٥٦-٥٩.

وفي حالة تضمن العنوان حذفا فإن درجة استلفات انتباه المتلقي تكون آكد وأقوى إذ لما يجمع من قرائن السياق ما يمكنه من تحديد المحذوف ليكتمل بناء التركيب وليتكون قطاع من الدلالة في الذهن.

وعلى هذا فالمتلقي يستوقفه الحذف ثم لا يُمَكَّن من الإجابة عن سؤالَيْن بدهييْن يوجدهما الحذف: ما المحذوف ؟ وما المعنى لو كان المحذوف مذكورا ؟

وفي حالة وقوع الحذف في غير العنوان فإن المتلقي يصل إلى الإجابة عن هذيْن السؤاليْن بسرعة ليصرف نشاطه الذهني بالكامل إلى الإجابة عن السؤال الثالث: لماذا كان الحذف ؟

وهكذا فإن المتلقي يبقى بين طرفين يتجاذبانه: قدر ما من الإفادة يستخلص من المذكور، وغموض وتساؤل بسبب عدم القدرة على تحديد المحذوف والمعنى الكلي للتركيب.

ومن عناوين المقالات التي شهدت حذفا: "بين اليأس والرجاء"، "بين الصحف والمجلات"، "إلى أخي الزيات"، "بين اللاعبين"، "في غار حراء"، "بجوار شجرة الورد"، "من صور الحياة"، "في الحر".

وفي هذه النماذج من العناوين يوجه المذكور إلى تحديد موقع المحذوف بالمبتدأ، وهو الركن الأول من الإسناد الذي يُسْند قطاع من "المعنى – هو

المذكور - إليه؛ ويمكن تصور المسار الذي يسلكه المتلقي على هدى لغة النحو ومنطق الحذف بأنه بحث عن "المبتدأ"؛ الذي يمثل ما يستخلص من دلالة المقال.

وإن كان المسكوت عنه في الحذف الواقع في العنوان ينحصر في مفردة أو مفردات - من زاوية النحو والتركيب ـ ليتم بها الفائدة، ويكتمل مستوى من المعنى، فإنه - أي هذا المسكوت عنه ـ يبدو ذا أبعاد متشابكة معقدة تتجاوز بساطة التحديد النحوي الذي يصادفه القارئ في العنوان، ذلك أن هناك مستويات ودرجات من المسكوت عنه، ولا تتضح هذه المستويات للقارئ، فإذا بالمؤلف يصرح ببعضها تصريحا، ويشير إلى بعضها إشارة دانية من التصريح، وبعضها يومئ إليه إيماء خفيا لطيفا. وكأن هذه المستويات والدرجات صورة تحاكي أبعاد التواصل مع النص، وما يحرزه هذا التواصل مع النص.

وبين المصرح به والمسكوت عنه جدلية ظهور وخفاء، وتصريح وإيماء

وهكذا يضمن صوغ العنوان على هذا النحو أن يكون المقال بتمامه وحدة واحدة يرتبط فيها منتهاه بعنوانه، وقد مثل المقال بتمامه مكونا تركيبيا أساسيا لجملة العنوان.



وقد يرد العنوان مبتدأ حذف خبره، وتكون دلالة المقال في مجملها إخبارا عنه، وقد هيمن عنوان المقال بما شهده من حذف على تلقي المقال وإدراك معانيه، فكلما تبلور قطاع مستقل للمعنى ارتد به المتلقي صوب العنوان ليربطه به ربط الخبر بالمبتدأ.

ومن نماذج هذا النمط من العنوان: "الأحنف بن قيس"، "علي فوزي بك"، "جمال الدين الأفغاني".

وقد تبلغ طاقة الحذف في العنوان على حفز تجاوب المتلقي غاية المدى، حين يقتصر صوغ العنوان على مفردة واحدة؛ قد تكون ضميرا مثل "هما"، أو على مفردتين في صورة التركيب الإضافي؛ مثل "سيدنا" !

ويشبه تأثير حذف الخبر من بعض الوجوه تأثير حذف جواب الشرط؛ فقد يكون العنوان مصوغا على هيئة أسلوب شرط حذف جوابه مثل "لو انتصر المسلمون".

والحق أن وقع الحذف قد التقى مع التكثيف الدلالي الذي تتسم به أداة الشرط "لو" فهي ذات قدرة مزدوجة على النفي؛ نفي الجواب ونفي الفعل، إذ يتسع مدى النفي فيها شاملا الشرط وجوابه معا لو يمتنع بها الشيء لامتناع غيره كقولك لو جاء زيد لأكرمته معناه امتنعت الكرامة لامتناع المجيء"(١).

(١) حروف المعاني ٣.





ومرد التكثيف لا ينبع من ازدواج المنفي فحسب، بل من القدرة على إيجاد رابطة دلالية منطقية بين الطرفيْن المنفيين؛ فالجواب منفي لكون الفعل منفيا.

فالعنوان يصرح للمخاطب أن المسلمين لم ينتصروا، وأن عدم نصرهم هذا كان سببا في نتيجة سكت العنوان عن بيانها، لتكون معرفتها هدفا منوطا بالقراءة المتعمقة للمقال؛ ذلك أننا"حين نأتي بشرط فإن التردد والاستثارة يعدان أمرين قائمين يهدئ منهما مجيء الجواب، ومن أجل ذلك فإن تأكيدا، أو قل ضغطا حاصلا على الجواب حين يأتي كفيل بأن يريح بال المستمع تماما "[1].

وهكذا يتضح للمتأمل أن من وجوه الحذف في العنوان وجوها تجعله جامعا بين جدلية الذكر والبوح، والخفاء والكتمان، ومن هذه الجدلية يستخلص المخاطب معالم المسار الذي تتخذه القراءة وقد حدد العنوان أهدافها وغاياتها.

وقد يحتمل صوغ العنوان المتضمن حذفا احتماليْن لتقدير المحذوف؛ حين يصبح اعتبار الذكور مبتدأ أو خبرا.

ومن أمثلة هذا النمط: "قيمة الثقافة"، "عدو الديمقراطية"، "سيدنا"، وترجّح قراءة المقال احتمالا على الآخر فيتمكن المتلقي من تحديد المحذوف.

---

(١) من وظائف الصوت اللغوي الدكتور أحمد كشك ٧٠.



وإدراك المحذوف أمر يجاوز تسوية الصنعة النحوية وإقامة بناء التركيب وفق القاعدة، فتحديد المبتدأ هو تحديد لنقطة الانطلاق في تكوين المعنى، وتحديد للمركز الذي يتركز عنده انتباه المتلقي، ويربط به مكونات التركيب التي هي جزئيات للمعنى.

ومعنى هذا أن المتلقي - في هذه الحالة من حالات الحذف في العنوان - ينشد تحديد مركز الثقل الدلالي ومناط الاهتمام الأكبر لدى الكاتب؛ فعلى سبيل المثال في مقال: "عدو الديمقراطية" هل يكون المسند إليه ذلك الشخص؟ فينشغل الكاتب بتقديم معلومات عنه يكون من بينها عداوته للديمقراطية، ويبقى ذلك الشخص مناط الاهتمام.

وقد تكون الديمقراطية وعداوتها هي المشغلة التي صدر عنها الكاتب، ويكون ذلك الشخص الذي يعاديها منحصرا في الأذهان في إطار عداوته لها فحسب.

وقد يبدو الفارق الدلالي بين الوجهين ضئيلا حين نتأمل من وجهة نظر التركيب وصوغ العبارة نظريا، لكن مع البحث عن الدلالة الكلية، والتنقيب عن المقولة والرؤية يكون تحديد هذا الفارق الدلالي – مع دقته وخفائه – أمرا جوهريا.

والحق أن الاقتصار في صوغ العنوان على مفردة واحدة يدعم انتباه المتلقي إلى وجود الحذف، وارتباط الضمير بحركة تراجعية صوب ما يعود

عليه يجعل من الاقتصار على ذكره ذا قدرة مضاعفة على لفت انتباه المتلقي وإثارة تساؤلاته؛ فقد انضاف إلى أثر الحذف أثر عجز المتلقي عن تحديد المرجع الذي يرتبط الضمير به ويعود إليه، ويؤول الأمر إلى إكساب العنوان غموضا يوجد ما يوجد من حيرة لدى المتلقي، مما يترتب عليه البلوغ بفاعلية التلقي أقصى غاياتها، وقد أصبح من أهدافها إشباع احتياج ملح لدى المخاطب.

وفي العنوان "سيدنا"، تزاد درجة إفصاح العنوان عن دلالة ما بفضل معنى المضاف من ناحية والذات المتكلمة في تجليها الجمعي من ناحية أخرى، ومع ذلك يشبه هذا العنوان سابقة في غموض يوجده العجز عن التحديد الدقيق لمرجع الضمير، فلا سبيل إلى القطع بذات بعينها تتحدث، ودلالة السيادة في المضاف تنصرف إلى معان عدة؛ اجتماعية ودينية وثقافية، مما يجعل العنوان – على وجازته – صالحا للحمل على وجوه دلالية متعددة لا يحسم وجها منها دون سائرها إلا قراءة واعية للمقال !

٤ – التَّشْبيهُ والاسْتعارةُ بَيْنَ الغَرابةِ و تشكيل الرُؤْية.

ظلمنا البلاغة حين قصرنا فهمنا للاستعارة والتشبيه على المتكرر المألوف من "شواهدها" وذلك حين وهمنا أن هذه الشواهد هي مبدأ الأمر ومنتهاه فأخذنا نرددها وحين أردنا أن نخرج عن إطارها – في مستوى الكتابة النظرية والتعليمية – أتينا بنماذج مقيسة على هذه الشواهد، لتحيلنا

النماذج إلى الشواهد، وليرتد المعاصر من التناول البلاغي إلى الموروث من الشروح والحواشي لدى السلف!

وقنع كثير من البلاغيين بالشواهد المحفوظة، ورضوا عن أنفسهم غاية الرضا بالنماذج المقيسة، ولم يجد خصوم البلاغة ومنكروها خيرا من المحفوظ والمقيس برهانا على الجمود والانغلاق وارتداد الجديد إلى القيم منكفئا عليه مكتفيا به !

والمبدعون كانوا أرحب أفقا، حين التمسوا من شبكة العلاقات الدلالية الجامعة بين طرفي التشبيه ومكونات الاستعارة ما يخاطبون به متلقي نصوصهم، وقد طمحوا أن يتواصلوا معه من لدن اللحظة الأولى للتلقي؛ لحظة مطالعة العنوان.

"أطبق البلغاء على أن المجاز والكناية أبلغ من الحقيقة والتصريح، لأن الانتقال فيها من الملزوم إلى اللازم فهو كدعوى الشيء ببيِّنة، وأنَّ الاستعارة أبلغ من التشبيه، لأنها نوع من المجاز"(١).

ومن عناوين المقالات التي نجدها في "فيض الخاطر": "حياتي مربى بلا خبز" !

(١) التلخيص في علوم البلاغة ٣٣٤.



حدثنا البلاغيون عن طبيعة طرفي التشبيه وبينوا أن ثمة اجتماعا وافتراقا في آن بين هذين الطرفين وأسهبوا في بيان أحوالهما(1)، والافتراق بَيّن فأي

(١) "...وإمَّا مُفَصَّلٌ وقد يتسامح بِذِكْر ما يستتبعه مكانه، كقولهم للكلام الفصيح: هو كالعسل في الحلاوة، فإنَّ الجامع فيه لازمُهَا، وهو مَيْلُ الطَّبْعِ، وأيضًا إمَّا قريب مبتذلٌ، وهو ما ينتقل فيه من المشبه إلى المشبَّه به مِنْ غيرِ تدقيق نظرٍ، لظهور وجهه في بادئ الرَّأي، لكونه أمرًا جمليًّا، فإنَّ الجملة أسبق إلى النفس، أو قليل التفصيل مع غلبة حضور المشبَّه به في الذهن، إمَّا عند حضور المشبه، لقرب المناسبة كتشبيه الجرَّةِ الصغيرة بالكوز في المقدار والشكل، أوْ مطلقًا لتكرُّرِه على الحسِّ، كالشَّمْس بالمرآةِ المجلوَّة، في الاستدارة والاستنارة، لمعارضة كلّ من القرب والتكرار التفصيل، وإمَّا بعيدٌ غريبٌ وهو بخلافه لعدم الظهور، وإمَّا لكثرة بالتفصيل كقوله * الشمس كالمرآة في كفِّ الأشَلِّ * أوْ نُدُورِ حضور المشبه به، إمَّا عند حضور المشبه لِبُعْدِ المناسبة كما مرَّ، وإمَّا مُطْلَقًا لِكَوْنِهِ وهميًّا أو مُرَكَّبًا خياليا أو عقليّا ، أوْ لِقِلَّةِ تكرُّره على الحسِّ كقوله: والشمس كالمرآة.

والمراد بالتفصيل أن تنظر في أكثر من وصف، ويقع على وجوه، أعرفها أن تأخذ بعضًا وتدع بعضًا وأنْ تعتبر الجميع، كما مرَّ، من تشبيه الثريا، وكلما كان التركيب مِنْ أمورٍ أكثر كان التشبيه أبعد، والبليغ ما كان من هذا الضرب. لغرابته، ولأنَّ نيلَ الشيء بعد طلبه ألذُّ، وقد يتصرَّفُ في القريب بما يجعله غريبًا .

وباعتبار الغرض إما مقبولٌ وهو الوافي بإفادته، كأنْ يكون المشبَّهُ به أعرف بوجه الشبه في بيان الحال، أوْ أتَمَّ شَيءٍ فيه في إلحاقِ الناقص بالكامل، أو مسلَّمَ الحُكْمِ فيه، معروفه عند المخاطب في بيان الإمكان، أو مردودٌ وهو بخلافه" وهذه الوجوه تقتضي أن يكون وجه الشبه في المشبه به أتم وهو به أشهر" راجع التلخيص في علوم البلاغة ٢٧٧-٢٨٩، والإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني - ٣٦\٣.

صلة واجتماع بين الحياة والمربى؟ وأي ثقة بتحقق وجه الشبه الجامع [1]، دفعت الكاتب دفعا أن يصوغ عنوانه على هيئة التشبيه البليغ الذي أوحى حذف أداة التشبيه فيه بشدة الاقتراب بين المشبه والمشبه به حتى لكأنهما شيء واحد وأومأ حذف وجه الشبه فيه إلى فتح المجال رحبا أمام المتلقي لالتماس وجوه شبه كثيرة لا يحددها الكاتب في وجه شبه وحيد يلتزم المتلقي به فلا يجاوزه إلى سواه.

ويدعم الكاتب التشبيه بين الحياة والمربى، ويضاعف وقع الدهشة والعجب أو فلنقل تأثير المزاح والدعابة بالامتداد التركيبي في صوغ العنوان بمفردة تنتمي لحقل المربى الدلالي لا حقل الحياة ! "حياتي مربى بلا خبز".

أي حيوية في هذا العنوان؟ وأي تأثير يتركه في نفس المتلقي؟ وأي سبيل لمعرفة ذلك كله إن لم نسلك سبيل التشبيه والطرفين والأداة المحذوفة ووجه الشبه الجامع، أي "مرونة" يهبها لنا الدرس البلاغي "القديم" في تأمل هذا العنوان ؟

ألا يجب أن نقرأ هذا التشبيه في ضوء حديث البلاغيين عن "التشبيه البعيد" وهو التشبيه البليغ:"والبليغ من التشبيه ما كان من هذا النوع

---

(١) يعرف التشبيه بأنه الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى و يوصّى أن يكون الشبه بين الطرفين جليًّا، لئلا تصير لغواً،...و إذا قوي الشبه بين الطرفين حتى اتحدا كالعلم والنور والشبهةِ والظلمةِ لم يحسن التشبيه. راجع التلخيص في علوم البلاغة: ٢٣٨ وما بعدها.

- أعني البعيد - لغرابته؛ ولأن الشيء إذا نيل بعد الطلب له والاشتياق إليه كان نيله أحلى، وموقعه من النفس ألطف وبالمسرّة أولى، ولهذا ضرب المثل لكل ما لطف موقعه ببرد الماء على الظمأ"[١].

ألا يطلعنا ذلك على ما يحصله المخاطب من رؤية يعيد فيها تصور مفردات الواقع المحيط به بفضل هذا اللون الفريد من التشبيهات؛ "وقد يتصرف في القريب المبتذل بما يخرجه من الابتذال إلى الغرابة"[٢].

وقد يوظف الكاتب قدرة التشبيه على الجمع بين طرفين في إبراز مقولة العنوان وإقرارها لدى المخاطب وإقناعه بها، ويحرص أن يحقق ذلك مبكرا من لدن عنوان المقال في صورة الحقيقة البدهية: "السيف والمدفع هما اللغة التي يفهمها الغرب" وتكون قراءة المقال في هذه الحالة سوقا للأدلة والبراهين وعرضا للمقدمات المفضية إلى هذه النتيجة

وجعل السيف والمدفع لغةً - على نحو ما يدلنا التشبيه - إشارة إلى حصر أداة التفاهم مع الغرب فيهما[٣].

وهكذا نجد أن العنوان لإفادته من قالب التشبيه قد أفضى بمقولة المقال ووجهة نظر الكاتب[٤].

---

(١) الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني - ٣\٦٣.

(٢) السابق، ٣\٦٤.

(٣) يكون وجه الشبه في المشبه به أتمَّ وهو به أشهر التلخيص في علوم البلاغة ٢٦٩.

(٤) التشبيه المُجْمَلُ، وَهُوَ مَا لَمْ يُذْكَرْ وَجهه، فمنه ظاهر يفهمه كل أحدٍ نحو: زيدٌ أَسَدٌ، ومنه خفيٌّ لا يدركه إلا الخاصَّةُ. راجع: التلخيص في علوم البلاغة ٢٧٤:وما بعدها.

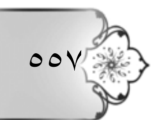


وقد يتحقق ذلك من خلال الاستعارة. فالكاتب يجهر بضيقه من هيمنة الماضي على العقول، وخضوع الناس له خضوعا لا يليق عبر مقال عنوانه "عبادة الماضي"، ويكشف عن بعد في القيم والأخلاق لا يفطن الناس إليه في مقال "التسلح الخلقي قبل التسلح العسكري" ويصوِّب وهما لدى الخصوم يتعلق بالعاطفة الوطنية من خلال العنوان "شعورنا الوطني لا تطفئه المدافع الرشاشة" !

ورغم اتصاف هذا العنوان باتساع المدى التركيبي إلا أن الاستعارة قد حققت له التكثيف الدلالي، فتأبى الشعور الوطني عن الانطفاء - كما تدل الاستعارة - لا يعطي دليلا على تعمق هذا الشعور وقوته فحسب، بل يومئ كذلك إلى ما اكتنفه من عاطفة قوية وحماس ثائر.

والمدافع الرشاشة العاجزة عن الإطفاء قد استحالت إلى ما هو أهون من الماء ! ولهذا فمآل الدلالة الاستعارة اعتزاز بحماسة الذات الثائرة، واستهانة بقوة الآخر المعادي.

ولا نبالغ إن قلنا إن الإهابة بالاستعارة منطلقا للفهم والقراءة مما يصون الدلالة من الاعتياد والابتذال، كما نجد في "عبادة الماضي"، فمعاودة فهم مثل هذا التركيب المألوف المتكرر على هدى اتخاذ الماضي إلها معبودا مطاعا ما يعيد لهذا التركيب حيويته الدلالية وقدرته على الكشف عن دلالات شتى.





ومزية الاعتماد على الاستعارة منطلقا للرصد والتحليل وتحديد معالم تشكل المعنى أظهر في مثل "المدينة تحطم الأعصاب"، فتحطيم الأعصاب تعبير مألوف متكرر يستعيد قدرته على خطاب المتلقي بفاعلية عبر تمثل المدينة المحطمة والأعصاب المتحطمة من شديد وطأتها !

٥-الطِّبَاقُ بَيْنَ التَّرْكِيبِ والدّلالَة.

تتبع مزية التقابل من حيويته المعجمية؛ وهو أمر سرعان ما ينسحب على المتلقى؛ بيان ذلك أن المتلقى يجد نفسه وقد تحرك من طرف دلالى إلى آخر، وكل طرف منهما بيان دقيق للمدلول المعجمى الذى ينطوى عليه الطرف الآخر؛ فبضدها تعرف الأشياء، والضد يبرز حسنه الضد، ومن هنا أصبح تواصل المتلقى مع التقابل ذا طبيعة ثنائية لا أحادية، وهي طبيعة تعنى بالنظر الموازن بين الطرفين، بما يبلور الدلالة داخل النص، ويمكنها من إحداث التأثير المرجو فى رحاب جماليات التلقى.

وحتى يستبين لنا وجه تلك الحيوية المشار إليها فلابد أن نشير إلى الكيفية التى يتمثل بها المتلقى دلالة النص؛ إذ يكون المتلقى هذه الدلالة من خلال وقوفه على المفردات من حيث هي، مستحضرا الصلة القائمة بين اللفظ ومعناه على نحو ما هو مستقر فى إطار المواضعة اللغوية، التى تتمثل فى ذهن المتلقى على هيئة أشبه ما تكون بالمخزون اللغوي، الذى يرد النص



مستدعيا بعض وحداته ليجعلها تتمثل فى "صورة دلالية" ترتسم فى ذهن المتلقي، فإذا ما صادف المتلقي لفظا مقابلا فإن ثمة انتقالا ينهض به الذهن من النقيض إلى النقيض - فيما يتعلق بهذه الصور الدلالية -وكأن ثمة اتساعا في المدى الذى يتحرك عبره الذهن حال تجاور هذين اللفظين!

والعلاقة بين الطرفين الواقع بينهما التقابل تتسم بقدر من الجدلية اللافتة، وإلى هذه الجدلية تعزى الحركة الذهنية التي أشرنا إليها لدى المتلقي؛ حتى أن السكاكي يصل بعلاقة التناسب بين المتقابلين إلى درجة التضايف؛ فالسواد والبياض، والسكون والحركة، والقيام والقعود، والإيمان والكفر، كلها ينزلها الذهن منزلة المتضايفين؛ "لأن الذهن يستحضر الضد على الفور قبل مجئ الطرف الآخر"[١].

يقيم الكاتب ثنائيات من طرفين متضادين، ويقيم عبر البناء التركيبي مفارقة بين مستويين لبناء الأسلوب: الدلالي حيث نجد اختلافا وتغايرا بين المفردتين الواقع بينهما الطباق والتركيبي حيث نجد اجتماعا وتلاقيا بين هاتين المفردتين وقد ارتدت أخراهما على الأولى في بناء العطف الجامع.

ومن نماذج هذه العناوين: "الموت والحياة"، "ولود وعقيم"، "الرجل والمرأة"، "التقليد والابتكار"، "الهدم والبناء"، والحق أن هذه المفارقة إنما

---

(١) مفتاح العلوم ١١٠.



تؤول إلى قرب المفردتيْن الواقع بينهما التضاد مما يدعم قدرة كل مفردة على إبراز الدلالة المغايرة للأخرى على نحو ما أشرنا من قبل.

وهكذا نفطن إلى أن العطف المُقَرِّب الجامع إنما يبلغ بدلالة التضاد غاية المدى، ويبلغ - بالتبعية - الحيوية الدلالية المصاحبة مدى موازيا، ويقبل المتلقي على قراءة المقال وهو يتحرى توزع أفكاره بين هذيْن الطرفيْن المتناقضيْن.

وقد يحدث العنوان تأثيرا معاكسا على التضاد حيث يخفف درجة التعارض بين المفردتين بإيجاد منطقة دلالية يلتقيان لديها؛ كما نجد في العنوان "أخلاق الطفولة والرجولة".

فالمخاطب لا يستوقفه التضاد بين الرجولة والطفولة بقدر ما يوجهه العنوان إلى الأخلاق المشتركة في المرحلتيْن، ويوجد العنوان بهذه الصياغة احتمالا آخر لدى المخاطب أن يكون ثمة نوعان من الأخلاق بينهما تعارض يصل إلى درجة التناقض في كل مرحلة عمرية، ولا سبيل إلى حسم حيرة المتلقي بين الاحتمالين إلا بالقراءة الكاشفة عن أفكار المقال.

وقد يحقق العنوان قدرا من المقاربة بين مفردتيْ الطباق، بأن يكون تمثل المتلقي لهما في منطقة وسطى بينهما وقد حقق لهما "الظرف" إطارا جامعا يدني إحداهما من الأخرى؛ ومن نماذج العناوين التي تحقق فيها ذلك: "بين

اليأس والرجاء"، "الشك قبل اليقين"، إن الأذهان تتجه إلى تصور ما يقع "بين" اليأس والرجاء من أمور يُتوقع أن يكشف عنها المقال، وفي العنوان الآخر صرف الظرف على نحو ما الأذهان عن الانشغال بما بين الشك واليقين من تضاد، ليكون ثمة اهتمام بوقوع أحدهما قبل الآخر في أحوال أو عند أشخاص مما يوضحه المقال.

وعبر التكرار يحيل العنوان الكيان الواحد إلى ثنائية يقع بين طرفيها التضاد؛ كما نجد في عنوان: "أدب القوة وأدب الضعف"؛ فالأدب ليس كما يعتقد البعض أدبا واحدا بل هو صنفان على نحو ما يعلنه العنوان.

ويحفز العنوان ملكة التمثل والتخيل عبر المزج بين التضاد بما حدثه من نشاط عقلي في إدراك المعنى، والفعل بصيغته بما يدفع إليه من تمثل مادي خال حدوثه ومن ذلك عنوان "يضحك أناس ويبكي آخرون" فالصيغة المضارعة تحفز التمثل المشار إليه وقد انضاف إليها البعد الصوتي المتخيل للضحك والبكاء.

ويكسب الطباق في التقائه بدلالة الصيغة الصرفية للفعل - مع بعده المادي المسموع - التلقي حيوية لافتة توجه صاحبها إلى التواصل الإيجابي مع المقال للوقوف على تفاصيل الدلالة التي أومأ إليها العنوان.

وقد يستأثر عنوان المقال بمساحة أرحب من اهتمام المخاطب، ويضمن الكاتب أن يستأثر بمساحة أرحب من وقت المخاطب وتأمله – على نحو مواز– عبر الجمع بين سمات شتى في الصياغة والتشكيل للعنوان، ومثال ذلك عنوان المقال: "عقلاء المجانين ومجانين العقلاء"، ففي هذا العنوان يصادفنا التضاد، فالمفردة الأخرى ليست نسخة للأولى، بل تكاد تكون نسْخا لها ! وذلك بسبب السمة الثانية للصياغة وهي التركيب الإضافي الدال دلالة ذاتية على التلازم والارتباط؛ فالتركيب الإضافي "يكشف عن بعد حميم بين طرفي الإضافة – على نحو ما بفهم من الدلالة الذاتية المصاحبة لهذا التركيب من ناحية وما يدل عليه من أغراض من ناحية أخرى"(١).

---

(١) "الإضافة في الكلام على ضربين أحدهما ضم اسم إلى اسم هو غيره بمعنى اللام والآخر هو ضم اسم إلى اسم هو بعضه بمعنى من الأول منهما نحو قولك هذا غلام زيد أي غلام له وهذه دار عبد الله أي دار له والثاني نحو قولك هذا ثوب خز والثوب بعض الخز أي ثوب من خز وهذه جبة صوف أي جبة من صوف واعلم أن المضاف قد يكتسي من المضاف إليه كثيرا من أحكامه نحو التعريف والاستفهام والجزاء ومعنى العموم"انظر اللمع في العربية ١/ ٨٠.
ورد بالإيضاح عن أغراض التعريف بالإضافة: "وإن كان بالإضافة فإما لأنه ليس للمتكلم إلى إحضاره في ذهن السامع طريق أخصر منها...وإما لتضمنها تعظيمًا لشأن المضاف إليه؛ كقولك "عبدي حضر" فتعظم شأنك. أو لشأن المضاف؛ كقولك "عبد الخليفة ركب" فتعظم شأن العبد، أو لشأن غيرهما؛ كقولك "عبد السلطان عند فلان" فتعظم شأن فلان. أو تحقيراً نحو: "ولد الحجام حضر". وإما لاعتبار آخر مناسب. راجع١\٧٤-٧٥.



فـالعقلاء لا يتـصورهم المخاطـب إلا مـرتبطين ارتباطـا دائـما ملازمـا بالمجانين، الذين ارتبطوا كذلك بالعقلاء !!

أمـا العطـف فقـد ضـاعف وقـع التـضاد عـلى المتلقـي، بـأن قـارب بـين الطرفين بتضادهما ومفارقة التركيب الإضافي بينهما وعلى ما فيهما من تكـرار ينطوي على التعارض والتغاير.

٦- الجِنَاسُ جَدلُ التَّشَابُهِ والتّخَالُف.

تقوم فكرة الجناس على المشابهة اللفظية التي تستكن وراءهـا مغـايرة في المعنى والدلالة وهو ما يقيم مفارقة بين التـشابه اللفظـي بـين الطـرفين وقـد جذب الآذان، والتغاير الدلالي بينهما كما اهتدت إليه الأذهان.

والطريـف في الجنـاس أن كـان الطريـق إلى إدراك التغـاير والاخـتلاف ذلك التشابه على المستوى الصوتي المسموع.

وقد مر بنا كيف انطـوى العنـوان "العـصا أم القـضا ؟" عـلى حالـة مـن الاقتراب والألفة بين طرفي الخطاب وقد فرّجه السياق - بالإضافة إلى تلك الألفـة - إلى المقارنـة بـين الطـرفين: "العـصا" و"القـضاء" مقارنـة شـاملة ما يرتبط بهما من دلالات مصاحبة تستدعيها المفردتان إلى الأذهان.

وقد يـدعم الكاتـب بـالتكرار قـدرة الجنـاس عـلى توجيـه المخاطـب إلى المقارنة؛ على نحو ما نجـد في العنـوان "جمـل يطـير وجمـل يـسير"، والتكـرار



دافع إلى المقارنة بين الجملين وقد بدأ الكاتب بالجمل الطائر ليجعل من غرابة الدلالة منطلق التواصل مع النص، ويضيف ذكر الجمل السائر ما يشبه الإيهام بحقيقة وجود الجمل الطائر! فكان العنوان يعني بذكر أنواع للجمال!

ويؤدي دعم الجناس للصلة بين المفردتين إلى توجيه المتلقين إلى الاهتمام بهما ليكونا في مركز الاهتمام، وهو ما يؤدي إلى توجيههم إلى مناط عناية المقال كما نجد في المقال "دمية في دمنة" فالجناس يدعم الاهتمام بالدمية وقد عني المقال بإبراز البعد المكاني المرتبط بها.

والحق أن إفادة المقال من ظواهر صوتية كالجناس يحقق قدرا من المفارقة الجدلية بين الشفاهي المنطوق المسموع، والكتابي المقروء؛ فالغالب على تلقي المقال القراءة لا الاستماع، وحين يضمن كاتب المقال ظاهرة صوتية بهذا البروز فإنما يضفي بعدا صوتيا لافتا على نصه ذي السمت المقروء الصامت.

وبعد:

فقد كانت السطور السابقة محاولة للاقتراب من فن نثري معاصر واسع الانتشار بأدوات بلاغية قديمة، على نحو يستلهم روح هذه الأدوات وما صدرت عنه من رؤية في التواصل مع النصوص، التي لا نتصورها بمعزل عن دلالة تنطوي عليها ومخاطب تنشغل به.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم:

١- أبجد العلوم:القنوجي- دار الكتب العلمية - بيروت.

٢- الأساليب الإنشائية فى النحو العربى: عبد السلام محمد هارون- مكتبة الخانجى- .

٣- الايضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة :الخطيب القزويني- مكتبة الاداب .

٤- باختين المبدأ الحواري: تزفيتان تودوروف ترجمة فخرى أبو صالح- هيئة قصور الثقافة.

٥- بلاغة الخطاب وعلم النص: الدكتور صلاح فضل، سلسلة عالم المعرفة - الكويت.

٦- بلاغة السرد: الدكتور محمد عبد المطلب. الهيئة العامة لقصور الثقافة- القاهرة.

٧- التحليل السيمائي للخطاب الشعري الدكتور عبد الملك مرتاض منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق ٢٠٠٥م.

٨- التفاعل بين النص والقارئ :ولفانج إيزر، ترجمة مالك سلمان، مجلة علامات، النادي الأدبي بجدة، مج٧/ ٢٥.

٩- التلخيص في علوم البلاغة :جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني الخطيب ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقي دار الفكر العربي القاهرة.

١٠- حروف المعاني لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاج تحقيق : د.علي توفيق الحمد- مؤسسة الرسالة بيروت.

١١- خزانة الأدب: الحموي - دار ومكتبة الهلال - بيروت.

١٢- دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني - قراءة محمود محمد شاكر - مكتبة الخانجي .

١٣- دينامية النص: د. محمد مفتاح- المركز الثقافى الغربى- بيروت/ الدار البيضاء .

١٤- الصاحبي: ابن فارس تحقيق السيد أحمد صقر- مكتبة الحلبي.

١٥- صبح الأعشى في صناعة الإنشا:أحمد بن علي القلقشندي - تحقيق الدكتور يوسف على طويل - دار الفكر – دمشق.

١٦- الطريق إلى النّصّ - سُلَيمان حُسَين - من منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٩٧- الكتاب على موقع الاتحاد على شبكة الانترنت.

١٧- عتبة النص الشعرى بين المبدع والمتلقى: محمد الواسطى- مجلة جذور- يونية ٢٠٠٣م.

١٨- علم اللغة العام: ف. دى سوسير- ترجمة الدكتور يوئيل يوسف عزيز، بيت الموصل.
١٩- العنوان وسيموطيقا الاتصال الأدبى د. محمد فكرى الجزار- الهيئة العامة للكتاب .
٢٠- قرى الضيف: عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس- تحقيق عبد الله بن حمد المنصور – دار الفكر- بيروت.
٢١- القول في الحياة والقول في الشعر: ميخائيل باختين ترجمة أمينة رشيد وسيد البحراوي ضمن كتاب مداخل الشعر – الهيئة العامة لقصور الثقافة .
٢٢- لسان العرب : ابن منظور دار صادر- بيروت.
٢٣- اللغة والموقع: أدم شاف ضمن كتاب المرجع والدلالة فى الفكر اللسانى الحديث- ترجمة عبد القادر قنينى – إفريقيا الشرق- المغرب
٢٤- اللمع في العربية لأبي الفتح عثمان بن جني تحقيق:فائز فارس- دار الكتب الثقافية – الكويت.
٢٥- مبادىء السنية عامة: أندرية مارتيدية- ترجمة ريمون رزق الله- دار الحداثة- بيروت .
٢٦- مفاهيم الشعرية: حسن ناظم- المركز الثقافى العربى – بيروت/ الدار البيضاء.



٢٧- مفتاح العلوم:السكاكي-دار الكتب العلمية بيروت .

٢٨- مقالات في الأسلوبية للدكتور منذر عياشي، اتحاد الكتاب العرب بدمشق.

٢٩- مناورات الشعرية: د. محمد عبد المطلب- دار الشرق- القاهرة/ بيروت-١٩٩٦م.

٣٠- من وظائف الصوت اللغوي محاولة لفهم صرفي ونحوي ودلالي :الدكتور أحمد كشك، دار المعارف ط١ القاهرة ١٩٨٣ م.

٣١- النظرية الأدبية المعاصرة:رامان سلدر ترجمة الدكتور جابر عصفور- الهيئة العامة لقصور الثقافة.

٣٢- نظرية التلقي: روبرت هولب: ترجمة د. عز الدين إسماعيل- النادي الأدبي بجدة .

٣٣- نظرية اللغة الأدبية: خوسيه ماريا- ترجمة الدكتور حامد أبو أحمد- مكتبة غريب .

٣٤- نظرية النص:رولان بارث، ترجمة محمد خير البقاعي، مجلة العرب والفكر العالمي، بيروت ١٩٨٨م.